

الدور التاريخي والحضاري للطرق البرية التي تربط أفريقيا بالساحل السوداني

أشارك - كبير باحثين

مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر - السودان

د. محمد المصطفى أبو القاسم

المستخلص:

تحاول هذه الورقة تحليل دور الطرق البرية التي تربط بلاد السودان وأفريقيا الشمالية بالعالم الخارجي في إطار حتمية الإتصال بين بني البشر، وتبادل المنفعة، وتناقش الطرق البرية وأهميتها في الحركة التجارية والثقافية، وأهمية البحر الأحمر كممر مائي يحتل موقعاً إستراتيجياً مع توغله في اليابسة، ويربط ما بين الشمال والجنوب والشرق والغرب. كما تناقش الورقة دور الموانئ السودانية في استكمال تلك الاتصالات الخارجية مع دول العالم، وتركز الورقة على تجارة الرقيق في بلاد السودان كسلعة كان لها مابعداها من آثار سلبية. كما تتطرق الورقة إلى أداء فريضة الحج عبر الطرق البرية وآثارها الدينية والثقافية والحضارية في بلاد السودان، والهجرة إلى خارج البلاد طلباً للعلم مع هجرة بعض العلماء إلى بلاد السودان، ومجهودات بعض شيوخ الصوفية في التعليم الديني، مما نتج عنه قيام حركات إصلاحية عمادها رجال الطرق الصوفية؛ كحركة الشيخ عثمان بن فودي القادري، والحاج عمر الفوتي التيجاني، ومحمد أحمد المهدي في السودان الشرقي. من نتائج البحث: أن البحر الأحمر يحتل موقعاً إستراتيجياً جعله يلعب دور حلقة الوصل بين أوروبا الغربية عالم المحيط الهندي. أن بلاد السودان في أفريقيا تحتل موقعاً مهماً إذ نجدها تطل على المحيط الهندي عبر ذراعه الأيسر والمحيط الأطلسي، مما ساعد على إنفتاح تلك البلاد على العالم الخارجي. أن شبكة الطرق البرية سهلت عمليات التبادل الثقافي بين بلاد السودان والعالم الإسلامي العربي إذ وفد إلى بلاد السودان كثير من العلماء والخبراء والمهندسين المعماريين الذين لعبوا دوراً مهماً في نشر العلوم الدينية والحضارة الإسلامية، كما سهلت عمليات إنتقال طلاب العلم من بلاد السودان إلى بلاد المغرب ومصر والحجاز.

The historical and cultural role of the road linking Africa to the Sudanese coast

Dr. Muhammad al-Mustafa Abu al-Qasim

Abstract:

This paper attempts to analyze the role of the land roads linking Sudan and North Africa to the outside world within the framework of the imperative of communication between human beings and mutual benefit. The West. The paper also discusses the role of Sudanese ports in completing those external contacts with the countries of the world, and the paper focuses on the slave trade in Sudan as a commodity that had negative consequences. The paper also deals with the performance of the Hajj pilgrimage via land routes and its religious, cultural and civilizational effects in Sudan. Migration outside the country to seek knowledge with the emigration of some scholars to the country of Sudan, and the efforts of some Sufi sheikhs in religious education, which resulted in the establishment of reform movements based on Sufi men; Such as the movement of Sheikh Othman bin Fodi Al-Qadri, Al-Haj Omar Al-Fouti Al-Tijani, and Muhammad Ahmed Al-Mahdi in eastern Sudan. One of the results of the research: that the Red Sea occupies a strategic position that made it play the role of a link between Western Europe and the world of the Indian Ocean The country of Sudan in Africa occupies an important position as we find it overlooking the Indian Ocean through its left arm and the Atlantic Ocean, which helped to open up that country to the outside world. The road network facilitated cultural exchange between Sudan and the Arab Islamic world, as many scholars came to Sudan Experts and architects who played an important role in the dissemination of religious sciences and Islamic civilization, and facilitated the transfer of science students from the countries of Sudan to the countries of the Maghreb, Egypt and the Hijaz.

مقدمة:

المقصود بأفريقيا هنا بلاد شمال أفريقيا والمغرب العربي، وبلاد السودان الشرقي والأوسط والغربي، مع ملاحظة أن بعض الطرق البرية تمر إلى الموانئ السودانية عبر بلاد الحبشة أيضاً. كذلك نظراً لإتصال بلاد السودان الأوسط والغربي بشمال أفريقيا عبر طرق برية متعددة، بمصر ومن ثم إلى الموانئ السودانية، ومن جانب آخر إتصال بلاد السودان بمصر والموانئ السودانية بشكل مباشر⁽¹⁾.

فهذه البلاد المذكورة تربطها شبكة من الطرق البرية مما جعلها تمثل وحدة متماسكة في مجال النشاط التجاري وحركة النقل على المستوى الإقليمي والدولي عبر الموانئ السودانية لتحقيق أهداف إقتصادية - إجتماعية وثقافية بالإنفتاح على العالم الخارجي. أضف إلى ذلك أن مصر تحتل موقعاً إستراتيجياً جعلها مركزاً للإلتقاء والإنتشار الحضاري، وما من شك في أن مصر ظلت تمثل المركز الإفريقي الذي من خلاله أطل العرب والمسلمون على بلاد النوبة والشمال الأفريقي وبلاد السودان الأوسط والغربي.

حتمية الاتصال بين بني البشر:

من المعلوم أن النشاط التجاري قديم قدم الإنسان وسعيه الدؤوب لسد احتياجاته من بعض السلع الضرورية كالملح، و سلع الرفاهية كالذهب والعاج وريش النعام. فالله سبحانه وتعالى أوجد ما يحتاجه الإنسان في أماكن متفرقة، وأعطى كل إقليم في كل حين نوعاً من المنتجات ومنع الآخرين، وخص بعض الأقاليم بمنتجات لا توجد عند غيرها «ليسافر هذا إلى بلد هذا ويستمتع قوم بأمثلة قوم ليعتدل القسم وينتظم التدبير»⁽²⁾.

فحتمية الاتصال وتبادل المنفعة هي التي أدت إلى ضرورة إقامة مسالك ودروب تربط الجماعات البشرية بالتدرج على المستوى المحلي، ثم بدأ الإنسان يتطلع إلى توسيع دائرة اتصاله بالجماعات الأخرى شيئاً فشيئاً وممارسة نوع من التبادل السلعي عرف بالتجارة الصامتة «Dummy Trade» وقد صحت ذلك تمدد طرق الإتصال البري إلى أن صارت تربط بين الأمم والشعوب، وكان طبيعياً أن يحدث هذا الاتصال آثاراً تاريخية وحضارية بالتدرج وعلى أعلى مستوى. ونجد في بعض الأحيان استخدام بعض الأطراف القوة بغرض السيطرة على الموارد، ويتضح ذلك في العلاقات بين القبائل والجماعات والأمم والشعوب منذ أقدم العصور. فعلى الرغم من الاقتناع بتحقيق المصالح المشتركة بالطرق السلمية، ثم اللجوء إلى التفاوض وعقد الإتفاقيات لتأمين القوافل والتجارات ومواقع الإنتاج، إلا أن إختلال ميزان القوى يجعل بعض الجماعات القوية تحاول استخدام القوة للسيطرة على بعض الموارد على حساب الجماعات الضعيفة طوعاً أو كرهاً. لذا نجد أن الطرق البرية قد تستخدم لأغراض عسكرية وأمنية، إضافة إلى دورها الإقتصادي - الإجتماعي.

الطرق البرية :

بالإضافة إلى إتصال بلاد السودان الغربي والأوسط والشرقي بموانئ البحر الأحمر بشكل مباشر، فإن بلاد السودان الأوسط والغربي تتصل بتلك الموانئ بشكل غير مباشر عن طريق شبكة

الطرق الصحراوية التي تربطها بشمال أفريقيا ومصر. فهذه الطرق ظلت تمثل شبكة واحدة تمت وازدهرت فصارت سبباً في تحقيق نجاح إقتصادي - اجتماعي وثقافي خاصة بعد الفتح العربي الإسلامي لمصر وشمال أفريقيا منذ سنة 12هـ/642م.⁽³⁾

ومن الناحية التاريخية فإن هذه الشبكة من الطرق الدولية بدأت من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب. وجاء الفتح العربي- الإسلامي لمصر وشمال أفريقيا فأحدث تحولاً خطيراً في الحياة السياسية والإقتصادية- الإجتماعية والثقافية في تلك البلاد. وفي ذات الوقت شكل حاجزاً إستراتيجياً بين أفريقيا وأوروبا التي لم تستطع تخطي ذلك الحاجز في ظل السيادة الإسلامية على البر والبحر إلا بعد الإلتفاف حول أفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي .

هناك طريق بري يربط مصر ببلاد النوبة والبجة يبدأ من الفسطاط ويتجه جنوباً إلى أسيوط ثم قوص، ويواصل شرقاً حتى المواليء السودانية (عيزاب وسواكن ومصوع). وطريق آخر يتجه من أسيوط جنوباً حتى دنقلا ، أو من أسيوط إلى واحة الخارجة ومنها إلى دنقلا، ومن دنقلا يتجه جنوباً إلى دارفور عبر درب الأربعين. وطريق ثالث يبدأ من أسيوط متجهاً ناحية الجنوب الغربي إلى كردفان ، ثم يواصل السير غرباً إلى دارفور حتى مدينة كوي ومنها غرباً حتى مراكز السودان الأوسط.

وهناك طريق يتجه من مصر جنوباً عبر الصحراء الشرقية إلى بلاد النوبة والبجة حيث توجد مناجم الذهب والزمرد (أرض المعدن) ، ومن ثم إلى المواليء السودانية وميناء عدول (أدوليس) الحبشية.⁽⁴⁾

أما السودان الأوسط فقد كان متصلاً بمصر وليبيا عبر بلاد فزان . فقد أشار يعقوبي إلى طريق يربط مصر وليبيا إلى اقليم بحيرة تشاد.⁽⁵⁾ هذا الطريق يبدأ من الفسطاط إلى أسيوط ثم يتجه غرباً إلى واحة الخارجة ثم واحة كفرة ، ثم يواصل السير جنوباً حتى بلاد الكانم والبرنو ، ثم يتجه غرباً إلى كاتسينا وجاو عاصمة السنغي، ومنها إلى بلاد غانا.⁽⁶⁾ وعلى الرغم من إشارة ابن حوقل بعدم صلاحية هذا الطريق لوجود العواصف الترابية وهجمات اللصوص المتكررة.⁽⁷⁾ إلا أنه من المستبعد أن تتحول القوافل إلى طريق سجلماسة نظراً لبعده مع وجود طريق فزان الذي يربط مصر وليبيا ببلاد السودان الأوسط، وطريق الأربعين الذي يربط مصر بدارفور التي كانت بدورها تتصل ببلاد السودان الأوسط. هذا إضافة إلى أن العواصف موسمية لا تهب طوال العام. كما أن القوافل قد تمتلك القدرة على صد الهجمات بحكم أن لديها تنظيمًا إدارياً يجعلها قادرة على مواجهة أي خطر.⁽⁸⁾

هذا إضافة إلى أن اقليم وداي كان متصلاً ببلاد الحجاز عبر هذا الطريق مع وجود طريق دولي آخر يصل بلاد السودان الأوسط بالحجاز عبر دارفور وسنار والمواليء السودانية ، وهو أقل كلفة إلا أنه غير مأمون.⁽⁹⁾ فكان أطول طريق مباشر يصل بلاد السودان بالبحر الأحمر هو ذلك الذي يبدأ من بلاد سنغامبيا ويتجه شرقاً ماراً بأعالي نهر النيجر وإقليم بحيرة تشاد حتى وسط

دارفور وكردفان، ثم يمر بمدينة سنار، ومن سنار تتفرع طرق القوافل المؤدية إلى الموانئ الحبشية والسودانية كطريق شندي- بربر- سواكن - وعيذاب - وطريق سنار - كسلا- مصوع أوزيلع عبر عدوة ود كسان.⁽¹⁰⁾ وطريق سنار- القلابات ، ومن ثم إلى الموانئ السودانية أو الحبشية كزيلع ومصوع. وهناك طريق آخر يمر بجنوب سنار حتى غندار ومن غندار إلى الموانئ السودانية أو الحبشية . ويبدو أن هذه الطرق التي تصل كل بلاد السودان بموانئ البحر الأحمر السودانية والحبشية بشكل مباشر تسير عبر أراضي السافانا الغنية والفقيرة ، حيث تتوفر مياه الأمطار والأنهار والنهيرات والآبار في أغلب أجزاء تلك الطرق .

وسائل النقل :

وسائل النقل البري كثيرة. كالحمير والخيول والثيران. إلا أن ظهور الجمال أدى إلى تحول خطير في مجال النقل لما يتمتع به ذلك الحيوان من خصائص ومميزات ، كتحمل العطش والصبر على الأحمال الثقيلة، وطول العمر ، مما جعله أهم أداة نقل إستراتيجية.⁽¹¹⁾ قال عنه البروفيسور سلامة«...كان مبعوث العناية الإلهية لكل البدو الذين كانت تعوق حركتهم عيوب الجياد في وقت كان فيه المناخ قد أخذ يتحول إلى جفاف مُهلك...»⁽¹²⁾.

البحر الأحمر والموانئ السودانية:

البحر الأحمر:

لقد ارتبطت هذه الطرق البرية بالعالم الخارجي عن طريق مصر وموانئ البحر الأحمر، ويهمنا هنا دور البحر الأحمر في إكمال الإتصال بعالم الشرق والغرب عن طريق موانئ السودانية التي أنشئت منذ فترة تاريخية مبكرة . وما من شك في أن البحر الأحمر ظل يمثل مسطحاً مائياً إستراتيجياً بالنسبة إلى العالم في التاريخ القديم والوسيط والحديث. فهو أحد ذراعي المحيط الهندي الذي يتميز بأنه المسطح المائي الوحيد الذي من خلاله تطل شعوب الشرق ذات الأهمية الإقتصادية لدول الغرب الأوربي . ويبدو أن أحد فراعنة مصر أحس بمدى أهمية البحر الأحمر بالنسبة لبلاده والعالم فشق قناة تربط النيل بخليج السويس لنقل التجارات الواردة من أفريقيا، وفي العصور الوسطى نجد أن الخليفة عمر بن الخطاب حفر قناة نيلية تصل النيل بالبحر الأحمر في سنة 643/23 وفي العصر الحديث تمكن البرتغاليون من الالتفاف حول أفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس الميلادي والوصول إلى الهند عبر المحيط الهندي وبالتالي إستغناء أوروبا عن البحر الأحمر كأهم ممر مائي يوصل إلى بلاد الشرق، تم إستعادة ذلك الذراع الأيسر للمحيط الهندي أهميته الإستراتيجية بحفر قناة السويس في عام 1869م.

فالبحر الأحمر - يتوغله في اليابسة - صار شرياناً رئيساً في حركة التجارة العالمية الصادرة والواردة من وإلى بلاد الشرق الأدنى والأقصى. وعلى الرغم من طبيعة تكوين هذا البحر ومناخه وقسوة الحرارة والرطوبة، والنشاط المرجاني فيه والجبال الثابتة في أعماقه وشدة الظلام وإستداد الرياح عند مدخل خليجي العقبة والسويس ، ووجود الدردور أو الدوامة حين تصطدم الرياح السورية بالرياح المصرية ، حيث تجري المياه في شكل دائري يمنع السفينة من السير فتظل تدور

حول نفسها مما جعله غير ملائم.⁽¹³⁾ خاصة في الجزء الشمالي منه. فكانت المراكب لا تبخر فيه إلا نهاراً خوفاً من الإرتطام بالصخور والشعب المرجانية. يقول الإدريسي أنه لولا مهارة الملاحين لما خرج مركب سالم⁽¹⁴⁾. وقد وصفه ابن ماجد بأنه:

«...أوسخ بحور الدنيا».⁽¹⁵⁾

يقصد كثرة الشعب المرجانية والصخور التي تعوق الملاحة. وعلى الرغم من كل هذا فقد ظل البحر الأحمر محافظاً على أهميته الإستراتيجية ، وأنشئت على ساحليه الموانئ خدمة للتجارة العالمية، وقد لقيت تلك الموانئ الأهتمام المتزايد من قبل حكام مصر والحجاز وغيرهم من حكام الدول المستفيدة . ومنذ عصر الأغريق في مروي فقد وجدت الموانئ السودانية إهتماماً من الحكام المرويين والأسويين الذين شملوا الطرق البرية برعايتهم أيضاً. ويبدو أن وجود الجمال ساعد في الإتصال البري بين تلك الموانئ ، وإزدهرت المملكة المروية بسبب النشاط التجاري البري والبحري ، والعلاقة الطيبة مع الأحباش .

1/ ميناء أدوليس (عدول):

يبدو أن المصريين هم الذين أنشأوا هذا الميناء في أخريات سنين دولة الفراعنة . فقد وجدت بعض الأدلة الأثرية التي تثبت ذلك⁽¹⁶⁾. كما أن إرتباط تجارة مصر بالمنطقة ربما شجعها على إنشاء ذلك الميناء والإهتمام به. ووجد الميناء إهتماماً من قبل الرومان منذ عام 275م حيث صار من أكبر أسواق تجارة الرقيق والمنتجات الأفريقية، وشكل مركزاً لسيطرة الرومان الذين حاولوا قمع حركات البجة الشماليين (البليمين).⁽¹⁷⁾

وكان هذا الميناء يربط منطقة الظهير الحبشي والسوداني بالعالم الخارجي عبر طريق رئيس يمر بالمرتفعات الحبشية والسهول السودانية، حيث ترفع إليه السلع الأفريقية الإستراتيجية ومنه إلى العالم الخارجي. وفي ذات الوقت كان هناك طريق بري يربط أدوليس بمنطقة مروي القديمة.⁽¹⁸⁾

2/ ميناء باضع:

يعتبر ميناء باضع من أهم الموانئ السودانية التي أسهم التجار في تأسيسه منذ فجر الإسلام دون أن يكون خاضعاً لإشراف أو نفوذ الدولة الإسلامية. لكن يبدو أنه كانت عربية النشأة بحكم أن العرب كان لهم نفوذ وسلطان على حركة التجارة الدولية منذ فترة سابقة للإسلام، وأسهموا في إعادة تأهيل كثير من المراكز البحرية القديمة.⁽¹⁹⁾ وجاء أول ذكر لهبأن أحد المسلمين هاجر إليه في سنة 637/16 ، ويبدو أن جماعات من بني أمية بقيادة عبد الله بن مروان لجأوا إليه في سنة 750/132 هرباً من العباسيين.⁽²⁰⁾ وعبروا عن طريقه إلى ميناء جدة. وقد فرض العباسيون سلطانهم عليه في عهد المأمون.⁽²¹⁾

يقال أن فترة إزدهار هذا الميناء كانت من سنة 637/16 إلى سنة 1100/500 كمركز تجاري عربي تتجمع فيه سلع الحبشة والبحة وما وراءها كالذهب وشن الفيل وريش النعام ، إلي غير ذلك ، إلا أنه فقد أهميته بعد ذلك التاريخ ويرى يوسف فضل أن الميناء لم يوضع في مكان مناسب

يجعله متصلاً بمنطقة الظهير البعيدة في الشمال والجنوب فظل مرتبطاً بجنوب بلاد البجة وشمال الحبشة أكثر من إرتباطه بمملكتي المقررة وعلوة.⁽²²⁾

3/ ميناء عيذاب:

يقع هذا الميناء السوداني في منطقة مثلث حلايب محاذة ميناء جدة تقريباً وفي أعالي وادي العلاقي وعلى بعد اثني عشر ميلاً شمال ميناء حلايب ، ويبدو أن البدء في إستغلال الذهب في وادي العلاقي أدّى إلى أنعاش النشاط التجاري في المنطقة حتى صار يطلق على عيذاب ميناء الذهب⁽²³⁾.

لمع نجم هذا الميناء لأنه نشأ وتطور كميناء دولي ذي أهمية كبرى في مجال التجارة الدولية ، إضافة إلى أنه كان يمثل أهم مركز لتلبية إحتياجات المعدنين في الصحراء الشرقية ، ثم صار ميناء حجاج بيت الله الحرام .

قال ابن جبير عن عيذاب التي زارها في سنة 1196/578، «...وهي من أفضل مراسي الدنيا، سبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائداً على مراكب الحجاج الصادرة والواردة ...»⁽²⁴⁾ ووصل الميناء قمة شهرته وصار آخر مركز سوداني تلتقي فيه سفن الهند والعرب وشرق أفريقيا. ويبدو أنه كان يخدم الحركة التجارية بين مصر واليمن وسائر بلاد الشرق أكثر من خدمة منطقة الداخل السوداني.⁽²⁵⁾

كانت عيذاب تحت إدارة زعامات قبلية كربيعة الذين صاهروا أهل البلاد، وفي سنة 1050/442 سيطر الفاطميون على ذلك الميناء وعينوا مشرفاً على الإمداد الغذائي وألزموا زعيم البجة بحمايته ضد هجمات الأحباش.⁽²⁶⁾ ثم أخضع الميناء لإدارة الأيوبيين الذين بسطوا سيطرتهم على اليمن والحجاز والبجة لدرء الخطر الصليبي آنذاك، وتأمين تجارة البحر الأحمر.⁽²⁷⁾ فقد تعرض الميناء لهجوم صليبي في سنة 1183/578 بغرض الإستيلاء على مكة والمدينة ، وأستولى المهاجمون على سفن قادمة من قوص.⁽²⁸⁾ ومما زاد من أهمية الميناء أن الصليبيين أقاموا حصناً في خليج العقبة ومنعوا الحجاج والتجار من إتخاذ الطريق الشمالي.⁽²⁹⁾

لكن رغم ذلك فقد بدأ الميناء يفقد أهميته التجارية بسبب الصراعات الداخلية بين السلطة المملوكية والحداربة.⁽³⁰⁾ والتدني الإقتصادي في مصر العليا وحالة الجفاف والمجاعات في منطقة قوص ، مما جعل التجار يتجهون صوب سواكن.⁽³¹⁾ ويبدو أن السلطان المملوكي برسباي كان يفضل ميناء جدة على عيذاب مما جعل الأهالي يهاجمون قافلة مصرية متوجهة إلى مكة . فأضطّر السلطان المملوكي برسباي إلى توجيه ضربة إلى عيذاب في سنة 1431/835 كانت القاضية ، إلا إنها استمرت حتى سنة 1492/897 تقريباً دون أن تفقد أهميتها بشكل نهائي.

4/ ميناء سواكن:

هو ميناء قديم أيضاً وكان معاصراً لعيذاب وأزدهر في العصر الإسلامي في مجال التجارة الدولية مع مصر وشمال أفريقيا وبلاد السودان، إضافة إلى نقل الحجيج . وكان هذا الميناء يخدم منطقة الظهير السوداني والأثيوبي بشكل خاص أكثر من باضع وعيذاب. وقد إزدادت أهمية هذا

الميناء بعد أفول نجم باضع فصار مركزاً رئيساً للتجارة الصادرة والواردة ومحط رحال السفن خاصة سفن التجار الكارمية الذين كانوا يفضلونه بسبب أن مرساه أفضل من مراسي اليمن والحجاز.⁽³²⁾

لقد وجد هذا الميناء إهتماماً من قبل المماليك في مصر بحكم أهتمامهم بتجارة البحر الأحمر. ففي سنة 1265/664 بعث السلطان بيبرس حملة لتأديب صاحب سواكن لتعرضه لأموال الموقى من التجار المصريين، ووضع الميناء تحت مراقبة حامية عسكرية، وفرض أموال الزكاة على سكان المدينة لحساب المماليك مما جعل حكام ممالك النوبة المسيحية يخافون من تعرض بلادهم لأضرار إقتصادية ودينية وعزلة عن العالم الخارجي⁽³³⁾. فبدأوا في شن الحملات العسكرية ضد مصر، والإغارة على عيذاب ونهب المتاجر وقتل أعداد كبيرة من أهل المدينة، والإغارة على مدينة أسوان أيضاً. وربما كان ذلك من منطلقات دينية صليبية. أيضاً كان رد الفعل المملوكي سريعاً بتسيير حملات عسكرية مما أدى في النهاية إلى إخضاع مملكة المقررة التي صارت تابعة للسلطة المملوكية في سنة 1276/674⁽³⁴⁾ ويبدو أن ذلك كان أمراً لا بد منه في سبيل درء الخطر الصليبي الذي صار يهدد المصالح الإسلامية في المنطقة.

مهما يكن من أمر فقد كان رد الفعل النوبي مهاجمة عيذاب ونهب متاجرها وقتل قاضيهما وواليهما ربما خدمة المصالح الصليبية.⁽³⁵⁾

أما ميناء سواكن فقد كان له علاقات طيبة مع بلاد الحجاز واليمن، وكان التجار الحجازيون يترددون على الميناء بأعداد كبيرة وأوردت المصادر كثيراً من أسمائهم. وفي سنة 1332/732 وجد ابن بطوطة ابن شريف مكة يحكم سواكن بحكم نظام توليه البجا السلطة لأبن الأخت، ومعه أخوانه الأمراء.⁽³⁶⁾ وذكر النويري الذي كان معاصراً لأبن بطوطة أن سواكن يقطنها الخاسة وهم مسلمون.⁽³⁷⁾ وهذا يؤكد قباب الصوفية المنتشرة في الإقليم في ذلك الوقت.

وبحلول القرن الخامس عشر صارت سواكن الميناء السوداني الأول، وذاع صيتها كميناء رئيس في حركة التجارة العالمية، وبدأت بعض السفن الهندية تتجه نحوها لإنخفاض رسومها الضريبية. غير أن الأحوال السياسية والصراعات الإقليمية في فترة ما بعد القرن الخامس عشر جعلت هذا الميناء يتأرجح ما بين الإزدهار وبدايات التدهور، ففتحول الملاحة الدولية من البحر الأحمر إلى رأس الرجاء الصالح منذ بداية القرن السادس عشر، مع أفول نجم المماليك في مصر ربما أدى إلى تدهور حركة الملاحة في البحر الأحمر، كما أن ظهور الدولة العثمانية ربما كان سبباً في ازدهار ميناء سواكن مرة أخرى.⁽³⁸⁾

5/ السلع الصادرة والواردة:

لقد ظلت بلاد السودان تمثل مستودعاً ضخماً لسلع تجارية إستراتيجية يتم تصديرها إلى مختلف أنحاء العالم في العصور الوسطى والحديثة، كالمعادن والثروة الحيوانية والغابية والقوى البشرية، ولا تستورد سوى سلع إستهلاكية أو مواد مستهلكة كالملح والأقمشة والملبوسات وأدوات الزينة الزجاجية. وقد نقل عن أحد تجار المغرب في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي أنه قال:

«...لولا الشفاعة لم أزل في بلادي تاجراً من تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع ، ويأتون التبر الذي كل أمر الدنيا له تبع، ومن سواهم يحمل منها الذهب، ويأتي إليها بما يضمحل عن قريب ويذهب إلى ما يغير من العوائد ، ويجر السفهاء إلى المفاسد ...»⁽³⁹⁾. والحقيقة أن بلاد السودان كانت تمثل إحدى الأسواق الرائجة لتلك السلع الاستهلاكية . إلا أن كثيراً من السلع الصادرة من بلاد السودان أو الواردة إليه كانت مرتبطة بتطورات اقتصادية واجتماعية ، كسد الاحتياجات وظهور الأديان السماوية وانتقال الأفكار والمعتقدات والعادات والتقاليد. فكل ذلك يتطلب استيراد أنواع معينة من السلع؛ كالمعادن وعلى رأسها الذهب والرقيق و سلع الرفاهية والكماليات كالعاج وريش النعام ، إلى غير ذلك مما يسمى بالسلع الملوكية.

من هذه السلع نأخذ الرقيق مثلاً، لما لتجارته من آثار إقتصادية واجتماعية داخل افريقيا وخارجها. فقدراجت تلك التجارة في كثير من الدول الافريقية، وكانت بلاد السودان تصدر أكبر الاعداد الى العالم الخارجي.⁽⁴⁰⁾ ففي الفترة مابين 1666 و 1766 بلغ عدد الذين اختطفوا من غرب افريقيا حوالي ثلاثة ملايين افريقي بواقع خمسة جنيهاسترلينية للشخص الواحد ، أرسلوا إلى المستعمرات البريطانية والفرنسية والاسبانية. وكان الأرقاء يجمعون من كل البلاد التي تقع جنوب الحزام السوداني. فالرقيق النوبي كان يجمع من المناطق التي تقع الى الجنوب من السودان الشرقي وينقل إلى مصر عن طريق أسوان ومنها إلى أسواق قوص والفسطاط والاسكندرية، أو يصدر إلى بلاد الجزيرة العربية والخليج العربي عن طريق الموانئ السودانية⁽⁴¹⁾. إضافة إلى الرقيق الحبشي الذي كان يجمع وينقل عبر الموانئ الحبشية والسودانية .

أما رقيق السودان الأوسط فكان يجمع بذات الطريقة، وقد تمارس عمليات اختطاف ضد بعض القبائل ، أو إنفاذ غزوات قبلية لجمع الرقيق وبيعه في الأسواق، على نحو ما قامت به قبيلة جذام وغيرها ضد ملك البرنو في سنة 1393/794 مع أنهم كانوا يدينون بالإسلام. ويقال أن الفزانين والزغاوة كانوا يخرجون من مدنهم إلى البادية ويسرقون أبناء القبائل الرحل وينقلونهم إلى بلاد المغرب عن طريق فزان. وذكر ابن بطوطة أن الجواري الحسان والفتيات يؤتى بهن من بلاد البرنو والزغاوة⁽⁴²⁾. وأهم مصدر للرقيق في السودان الغربي هو المنطقة التي تقع إلى الجنوب من تلك البلاد. ويقال أن بعض ملوك مالي كانوا يشنون الحروب ضد جيرانهم الذين يمتنعون عن دفع الخراج ، ويبيعون الأسرى في الأسواق. وفي هذا الجزء من السودان مراكز لتجميع الرقيق ، كبريس وتكرور وسلي وتبكتو وأودغست، ومنها يرسل إلى بلاد المغرب الأقصى وشمال أفريقيا. وكانت القيروان أكبر مركز لتصدير رقيق البلاد المذكورة إلى بلدان شرق المتوسط.⁽⁴³⁾ ومن المؤكد أن هؤلاء الأرقاء كان يتم ترحيلهم عبر الطرق البرية الداخلية سيراً على الأقدام مقرنين بالحطب في الطرق والدروب المحلية، ومن ثم يتم نقلهم إلى المراكز المذكورة أما سيراً على الأقدام أو باستخدام الدواب المختلفة. ومن المهم أن نذكر هنا أن بلاد السودان الغربي تأثرت بالوجود البرتغالي بعد عمليات الكشف الجغرافي والإلتفاف حول افريقيا . ففي سنة 1444م وصلت سواحل لشبونة أول شحنة من مصب نهر السنغال وإستمرت عمليات نقل الرقيق من السنغال إلى لشبونة حتى فاق عدد الأرقاء أعداد

السكان في كثير من المناطق البرتغالية في أوائل القرن السادس عشر.⁽⁴⁴⁾ ونشير هنا إلى أن كثيراً من السلاطين والزعماء القبليين في الساحل الغربي وقعوافرائس سهلة للاغراءات الأوربية فصاروا عوناً لهم على إنفاذ مخططات إستراتيجية اقتصادية ودينية، بل شرك بعضهم في إنفاذ تلك المخططات بشكل رئيس. فهم أصلاً كانوا يمارسون تلك التجارة داخل بلادهم في إطار اجتماعي أسري على نطاق ضيق فلم يكن صعباً عليهم أن يشاركوا في هذه التجارة العالمية ذات الربح الوفير.

6/الطرق البرية وموسم الحجوالعمرة :

لقد أظهر عامة المسلمين في أفريقيا رغبة وحماساً لأداء فريضة الحج، إلا أن الأحوال الأمنية بسبب الصراعات الداخلية والحروب وحركات الجهاد الإسلامية أدت إلى تناقص أعداد الحجاج الملوك والسلاطين والأمراء المسلمين. ونتج عن ذلك ظهور جدل فقهي منذ بداية القرن الثامن عشر الميلادي حول مسألة أداء تلك الفريضة. وأول من أصدر فتوى بعدم أداء الفريضة في حالة عدم توفر شرط الاستطاعة وإستتباب الأمن الشيخ محمد بن المختار الشهير بأبن الأعمش، وهو من أشهر علماء مدينة شنقيط. إلا أن هذه الفتوى لم تجد قبولاً وإستحساناً لدى بعض الفقهاء، ووصفها بعضهم بأنها «قلة أدب»⁽⁴⁵⁾. وكان محمد بن المختار الكنتي (1729-1811) شيخ الطريقة القادرية يقول بأداء الفريضة على التراخي، ويرى محمد بيلو سلطان صكتو (1817-1838) تقديم الحجة الأولى على الجهاد إلا في حالة وجود خطر يهدد الجماعة المسلمة، مع توفر شرط الاستطاعة، وتأثيم من يؤدونها الفريضة رغم المهددات الأمنية والمخاطر والصعاب.

أما الفريق الآخر فكان يقول بضرورة أداء الفريضة رغم المخاطر والصعاب. وقد وجد هذا الرأي القبول لدى سكان الصحراء الغربية، وأخذ به أغلب التكاير التجانية الذين يتخذون طريق الصحراء الغربية رغبة في تسجيل زيارة لقبر شيخهم أحمد التيجاني بمدينة فاس.⁽⁴⁶⁾ ومهما يكن من أمر فإن عامة المواطنين المسلمين في السودان الغربي والأوسط كانوا يصرون على أداء الفريضة رغم ما يواجهون من مصاعب. فمنهم من يتخذ طرق السودان الشرقي المؤدية إلى الموانئ السودانية، ومنهم من يتخذ الطرق الصحراوية المؤدية إلى بلاد المغرب أو ليبيا ومصر، ومن مصر يصلون إلى الموانئ السودانية عبر مدينة قوص. وحسب ما توفر من مصادر فإن أول من أدى فريضة الحج من السلاطين التكاير السلطان المالي برمندانه، وربما كان ذلك في سنة 1050/441، وتشير بعض المصادر إلى حج مانسا ولي (السلطان علي)، على أيام السلطان المملوكي الظاهر بيبرس المتوفى سنة 1277/676. ثم أدى الفريضة سيكرة (أو ساكوة) في سنة 1300/700.⁽⁴⁷⁾ متخذاً طريق القوافل عبر نهر النيجر ووحدات الصحراء الغربية إلى مصر ثم إتجه ناحية الجنوب الشرقي إلى الموانئ السودانية عبر مدينة قوص. وبعده باربعة وعشرين عاماً حج السلطان مانسا موسى سلطان مالي في سنة 1324/724 متخذاً طريق القوافل الغربي عبر سجلماسة. يقال إنه كان برفقته ثمانون ألفاً من الجند وغيرهم وأثنى عشر ألف وصيفة، وثمانون من الجمال المحملة بالتبر وخمسمائة عبد يحمل كل واحد منهم قضيباً من ذهب يزن ثمن اقة.⁽⁴⁸⁾ مما أدى إلإغراق أسواق مصر بالذهب وأحداث إنخفاض في سعره هناك لفترة من الزمن. ويقال إنه أهدى إلى السلطان الناصر إبن قلاوون وسائر أمرائه

وموظفيه كمية من ذلك الذهب.⁽⁴⁹⁾ وعلى ما في تلك الاعداد البشرية والكميات من الذهب من مبالغة إلا إنها تعطي مؤشراً واضحاً لدور فريضة الحج في إنعاش حركة التجارة الاقليمية والعلاقات الدبلوماسية. الأهم من ذلك نقل الثقافات المختلفة. فقد تعرف السلطان موسى على الشاعر المهندس المعماري أبو إسحاق الساحلي وتعلق به واقتعه بالذهاب برفقته إلى مالي . فأدخل أبو اسحاق عملية البناء بالاجر المحروق لأول مرة ، وشيد مسجداً ضخماً في مدينة جاو وآخر في تنبكتو ، كما شيد قصر السلطان موسى⁽⁵⁰⁾.

ثم ادى السلطان أسكيا محمد التوري سلطان سنغي الفريضة في نهاية سنة 1497/902 وقد رافقه ثمانمائة رجل منهم كثير من العلماء والوزراء والاداريين والجند. ويبدو إنه قضى عاماً كاملاً ما بين مصر والحجاز.⁽⁵¹⁾ وربما سلك ذات الطريق الذي يبدأ من قوص. ويقال إنه أنفق أموالاً طائلة في تلك الرحلة، وقد منحه الخليفة العباسي المقيم في مصر لقب خليفة السلمين في بلاد التكرور. وفي طريق عودته إصطحب معه محمد بن عبد الكريم المغيلي، وهو من علماء البربر، وقد بدأ هذا العالم في نشر تعاليم الإسلام بدءاً بواحة توات ثم تأكيداً وكاتسينا وكانو حيث مهد لحركة إصلاح ديني وعاد إلى توات وتوفي في سنة 1502.⁽⁵²⁾

أما في السودان الأوسط فأول من أدى الفريضة السلطان مي جبلمي الكامي الذي ربما كان أول من أسلم في تلك البلاد . لقد خرج هذا السلطان من بلاد البرنو لأداء الفريضة في سنة 1084 لكن وافته المنية في مصر سنة 1097. وأغلب الظن إنه توفي بعد أداء الفريضة. أما ابنه السلطان دوناما بملي فيقال إنه أدى الفريضة مرتين، وتوفي غرقاً في مياه البحر الأحمر وهو في طريق عودته بعد أداء الحجة الثالثة في سنة 1150.⁽⁵³⁾

أما حجاج سلطنة دارفور فليس بين أيدينا تفاصيل كافية عنهم عدا الأمير أبومدين الذي كان مقيماً في مصر مطالباً بعرش السلطنة. وذلك لأن السلاطين كانوا يؤدون الفريضة في كل عام وبرفقتهم أعداد كبيرة من رجال البلاط والحاشية وغيرهم. فقد تميزت السلطنة بأنها كانت تدفع مبلغاً من المال لتجهيز المحمل؛ وهو عبارة عن بضائع مختلفة من سلع الرفاهية كالعاج وريش النعام إلى غير ذلك، تباع في أسواق القاهرة ويحمل ثمنها ويسلم إلى إدارة الحرمين بواسطة رئيس قافلة الحج، ويطلق على ذلك المبلغ صرة الحرمين⁽⁵⁴⁾. وأما ملوك سنار فلم يتدخلوا في أداء الفريضة رغم الصراعات الداخلية والخارجية، بل كانوا أكثر اهتماماً بأمر الحج والحجيج. كالشيخ عجيب المانجلج الذي كان يحرص على أراحة الحجاج وتأمين الطرق التي تمر بأرض السلطنة⁽⁵⁵⁾. وكان حجاج السلطنة يتخذون الطرق المؤدية إلى الموانئ الحبشية والسودانية. ومن الذين أوردتهم ود ضيف الله في طبقاته نأخذ مثلاً: الجنيد ولد طه بن عمار. فهو من المتصوفة الذين أعطاهم الله سبحانه وتعالى القبول الحسن عند الملوك والسلاطين لاسيما أهل الحرمين الشريفين، ومدينة جدة. فكان كثير الحج إلى بيت الله الحرام، حج حجته الأولى في سنة 1650 م وتوفاه الله بالحجاز.⁽⁵⁶⁾

كذلك الشيخ حمد النحلان بن محمد البديري الذي أمر حيرانه بالسفر معه لأداء الفريضة، فسافر معه سبعون من طلابه. ومن أولاد جابر أدى الفريضة أخوهم اسماعيل وبرفقتة أخته⁽⁵⁷⁾.

7/ الهجرات الداخلية والإستيطان:

يبدو أن هنالك أسباباً دفعت التكاير للهجرة شرقاً إلى بلاد السودان الشرقي في فترات مختلفة كحالات الجفاف الذي ضرب بلاد السودان الأوسط في أربعينات وخمسينات وستينات القرن السادس عشر مما جعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن البرنو ربما كانوا أول المهاجرين إلى بلاد السودان الشرقي⁽⁵⁸⁾.

كما مثل النشاط التجاري عاملاً مهماً من عوامل الهجرة والإستيطان في بلاد السودان الشرقي. فالحاج حماد، التاجر البرقاوي كان مقيماً بمدينة سنار لفترة طويلة وسافر إلى الحبشة ورافق الرحالة جيمس بروس عند تحركه من قندار إلى سنار، ثم انتقل إلى مدينة الفاشرسنة 1793م، حيث التقى الرحالة براون⁽⁵⁹⁾. ويحدثنا بيركهاردت عن الحاج علي البرناوي، رئيس التجار الذي صحبه في رحلته من شندي إلى سواكن، ويقول انه كان يعمل في تجارة الرقيق وذهب إلى بلاد كثيرة في الإمبراطورية العثمانية وغيرها، لكنه إستقر في كردفان وصار يعمل ما بين كردفان وجدة⁽⁶⁰⁾. وقد مارس التكاير تجارة الخردوات مع بيع التماثيل التي كان يعتقد بأنها تقي من العين والسحر والسلاح الناري، إلى غير ذلك قبل وبعد أداء الفريضة⁽⁶¹⁾. ومنهم من يعمل في الزراعة ليحصل على المال اللازم لأداء الفريضة. فالأغلبية من التكاير الفقراء ينوون الحج دون أن يكون لديهم قدراً كافياً من المال يغطي نفقات السفر. لذا قد يؤدي بعضهم الفريضة بعد عدة سنوات يقضيها متنقلاً في المدن والقرى السودانية والحبشية، ومنهم من يوفق في الزواج قبل أو بعد أداء الفريضة وينجب الاطفال، وقد يبقى مجاوراً بمكة أو المدينة، ومنهم من يستقر في إحدى مدن وموانئ الحجاز أو السودان الشرقي، أو الحبشة، ومنهم من يواصل المسير إلى بلاده وبرفقته أسرته. ولتفصيل أمر هذه الهجرات نأخذ:

أ/ الإستيطان في دارفور:

هو أول إقليم أستقر فيه بعض الحجاج التكاير وغيرهم من أهالي السودان الأوسط والغربي. وتوجد أدلة تؤكد على سيطرة البرنو على الإقليم منذ فترة سابقة للعام 1822م وهو تاريخ زيارة الرائد دونهام للإقليم⁽⁶²⁾. كما نجد ان الفلاتا والمراريت وبعض أهالي وداي كانوا يقطنون شرق ووسط دارفور. ويبدو أن الفلاتا الذين لعبوا دوراً مهماً في الحياة السياسية والاقتصادية - الإجتماعية في بلاد البرنو والبرقو أنفذوا أكبر هجرة لهم إلى دارفور على أيام السلطان أحمد بكر (1726-1746) وكان لهم دار خاصة بهم في الطرف الجنوبي لجبل مرة وتزوجوا مع البقارة. وفي عهد السلطان عبدالرحمن الرشيد (1787-1801) كان الفكي سراج الفلاتي من أهم رجال البلاط في السلطنة، كما لمع نجم مالك الفتواوي أحد فقهاء الفلاتا على أيام السلطان محمد الفضل. فقد كان معلماً للسلطان عبد الرحمن الرشيد قبل توليه أمر السلطنة⁽⁶³⁾.

هذا إضافة إلى عناصر أخرى بدوية إستوطنت قرية جداد، ومجموعة أقاما التي كانت ترعى إبل السلطان، والبرنو الذين إستقروا بمنطقة رهيد البردي. وعلى أيام السلطان إبراهيم (1874-1875) كان آدم رجال التكروري من أبرز المواطنين التكاير، وقد إنضم إلى جيش السلطان علي دينار. وكان مصطفى كلقام من كبار الشخصيات التكرورية في جيش السلطان علي دينار أيضاً.

ب/الاستيطان في السودان الشرقي:

ذكر بيركهاردت أن أعدادا كبيرة من الفلاتا كانوا يعيشون في حي خاص بهم في الأبيض وتحت قيادة واحد منهم. وكان المولدون من التكاير منتشرين في أغلب مدن كردفان، جاؤوها من دارفور. وكانوا يعملون في مجال الزراعة، وتزواج بعضهم مع العناصر المحلية كالبيدية والحمير والمسيرية⁽⁶⁴⁾.

وفي فترة الحكم التركي-المصري في السودان هاجر الفلاتا والهوسا والبرنو وإستقروا في الدنج وجبل فلاتا والأبيض والنهود وغيرها⁽⁶⁵⁾.

وتعد قرية الشيخ طلحة من أكبر مستوطنات التكاير في سلطنة سنار. يقال أن مؤسسها الشيخ محمد عيسى الفلاتي عام 1830 وقام كثير من قرى الفلاتا من حولها، ويذكر أن محمد ود عدلان كان في سنة 1808 مقيماً في حلة برقو، مما يدل على قيام مستوطنة للبرقو قرب مدينة سنار منذ فترة سابقة لهذا التاريخ. أما مدينة مايرنو فقد أسسها الأمير مايرنوبن الطاهر الثاني الذي أفلت من قبضة المستعمر ووصل بلدة الشيخ طلحة ومنحه السناريون الأرض وسميت باسمه⁽⁶⁶⁾. ويبدو أن بعض العناصر العربية إستقرت في تلك القربوتزواجت مع أهل تلك المستوطنة.

وهناك وجود تكرر في كثير من المدن السودانية كأم درمان والخرطوم بحري والخرطوم وكسلا والقضارف وغيرها. وكان أفراد قبيلة الفلاتة أكثر شهرة من غيرهم وتبوأوا مناصب مهمة على أيام محمد أحمد المهدي والخليفة عبدالله الذي اتخذ منهم مائتي فرد لحرسه الخاص⁽⁶⁷⁾.

ومن وجهات التكاير نأخذ مثلاً:

الفكي الأمين الفلاتي: فهو من فقهاء قبيلة الفلاتا. كان يعمل في بلاط السلطان إبراهيم، آخر سلاطين الفور وكان تقياً ورعاً ويعتبر من أشهر التكاير الذين هاجروا إلى أم درمان أبان الثورة المهدية مساهماً في مجال الصناعات الحربية⁽⁶⁸⁾.

محمد بيلو الداداري: وهو من أشهر علماء الفلاتا أيضاً. هاجر من إقليم كردفان إلى أم درمان وكان من المقربين للمهدي وحضر وفاته، ويقال إنه كان من أوائل الذين بايعوا الخليفة عبدالله بعد وفاة المهدي.

الحاج أحمد محمد قدح العشاء: جاء والده من إقليم كتاقوم بنيجريا وإستقر بدارفور وإنضم إلى ثورة المهدي. ولد في سنة 1862م من أم هي ابنة ابوبكر ابن السلطان حسين سلطان دارفور. تزوجها والده حين كان ضيفاً على السلطان حسين وهو في طريقه إلى بلاد الحجاز لأداء الفريضة. تربى الحاج أحمد في إقليم كتاقوم وحفظ القرآن هناك وعاد إلى الفاشر وشارك في معركة شيكان وغيرها من معارك المهدية. توفي سنة 1925م في حي الكارا بأم درمان (بين البلدية وحي الموردة) وإشتهر بلقب «قدح الدم» لأنه شارك في معركة كرري وكان من جرحى تلك المعركة⁽⁶⁹⁾.

الفكي ابو بكر محمد فمري: هو فقيه من فقهاء الفلاتا، جاء من إقليم مسو (بكر الميم وفتح السين) بنيجريا، وهو من كبار شيوخ الطريقة التيجانية وكان يعمل في مجال الطب البلدي وهو أحد أطباء الإمام المهدي وجلسائه، وإتخذ الخليفة عبد الله طبيباً خاصاً بعد وفاة الإمام

المهدي. روي عنه أنه ومن معه من أهل الطريقة التيجانية لم يكونوا راضين حل الامام المهدي للطرق الصوفية، وإستبدال أوراها براتب المهدي ، إلا إنهم قبلوا ذلك ربما لتوحيد كلمة المسلمين. كان ضمن مجاهدي الراية الزرقاء وشارك في معركة كرري وكان ضمن الجرحى. وبعد إنقضاء دولة المهدي عاد إلى الطريقة التيجانية وزاول نشاطه الديني في مسجد ابن عمه الحاج أحمد محمد «قدح الدم» بحي العباسية أم درمان⁽⁷⁰⁾. وهناك الكثير من التكاير الذين إستوطنوا كثيراً من مدن السودان الشرقي بشكل عام. إلا أن إقليم راس الفيل على الحدود السودانية-الأثيوبية يعتبر أكبر مركز للوجود التكروري في السودان الشرقي، حيث نشأت مشيخة تكاير القلابات كأكبر مستوطنة للتكاير في السودان. أسسها الحاج التكاير القادمون من دارفور بقيادة شخص يدعى فورنكوي في حوالي منتصف القرن السابع عشر الميلادي. وربما كان الشيخ الحاج عمر الفرباوي (الغرباوي) أول من أنشأ التنظيم الإداري للمشيخة. وقد تعاقب على إدارتها حتى 1900 م أكثر من إثنتين وعشرين شيخاً⁽⁷¹⁾، من أبرزهم صالح إدريس شنقا الذي تأرجح ولاؤه ما بين المهدي والأتراك في مصر.

ج/الهجرة طلباً للعلم:

حسب ما توفر من مصادر فإن أعداداً كبيرة من طلاب العلم التكاير وفدوا إلى السودان الشرقي بغرض تلقي العلوم الدينية منذ منتصف القرن السابع عشر الميلادي . ففي سيرة الشيخ أرباب بن علي بن عوف المتوفى سنة 1671 ، بلغ عدد طلبته ألفي طالب من بلاد الفونج حتى بلاد برنو. كذلك الشيخ محمد القدال المتوفى سنة 1684 بلغ عدد طلبته من التكاير ألف وسبعمائة طالب. وكان تلميذه الشيخ محمد مدني دشين (قاضي العدالة) يقوم بتعليم التكاير أيضاً. كذلك الشيخ الزين بن الشيخ صغبرون فقد تخرج على يديه كثير من العلماء والفقهاء بشكل عام⁽⁷²⁾. وقد إشتهر مدني ود ابودليق باحياء نارالقرآن وإكرام الضيوف، بل يقال أن الشيخ خوجلي أخذ علم الكلام والتصوف من الشيخ أرباب العقائد وغيره، وأدى فريضة الحج وسلك طريق القوم على يد الشيخ احمد التنبكتاوي الفلاقي القاطن بالحرم ، ويقال إنه كان متمسكاً بالكتاب والسنة مع متابعة السادة الشاذلية في أقوالهم وأفعالهم⁽⁷³⁾. وجاء في طبقات ود ضيف الله أن محمود العركي وإبراهيم البولاد ذهباً إلى مصر ودرساً في الجامع الأزهر على مذهب المالكية. هذا مع توافد العلماء المالكية من بلاد المغرب أيضاً⁽⁷⁴⁾. ويبدو أن أول الذين حضروا إلى السودان وبدأوا في نشر الدعوة الشيخ غلام الله بن عائذ اليمني. جاء من اليمن إلى دنقلا في النصف الثاني من القرن الرابع عشر. ثم جاء من مصر محمد القناوي المصري في أول النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي على أيام الشيخ عجيب المانجلج، وذهب إلى بربر وأرجبي وسنار، وإختار بربر سكناً له وبنى بها مسجداً لتدريس الرسالة والعقائد والنحو وسائر العلوم الدينية⁽⁷⁵⁾. وفي عهد الشيخ عجيب جاء إبراهيم البولاد من مصر إلى دار الشايقية ودرس فيها العلم. وجاء إلى سنار أيضاً محمد بن علي القرم (بفتح القاف والراء) الشافعي من مصر وأدخل المذهب الشافعي في بربر وأرجبي وسنار وانتشر مذهبه في الجزيرة⁽⁷⁶⁾. وقد صحب ذلك عمليات هجرة إلى مصر بغرض تلقي العلوم

الدينية وغيرها. فأقام السناريون رواقاً لهم في القاهرة ورواقين في مكة والمدينة، وكل ذلك ربما كان بغرض ترغيب الطلاب في تلقي المزيد من العلم بعد تخرجهم من خلاوي بلاد السودان. ففي مايو من عام 1701 شاهد الرحالة الألماني كرمب (Krumpholtz) الطلبة في مدينة سنار وهم يحملون ألواحاً خشبية بيضاء ويقيمون حلقات للذكر في الميادين العامة، وآخرين من البرنو وفزان يحملون آلات إيقاعية كالرق والصنج، وأن أثنى عشر منهم سافروا معه إلى مصر⁽⁷⁷⁾. فرمما كان ذلك بغرض تلقي العلوم الدينية بعد دراستهم في خلاوي بلادهم أو خلاوي سنار وغيرها. وبالإضافة إلى ذلك فإن أعداداً كبيرة من طلاب البرنو كانوا يذهبون إلى مصر وبلاد الحجاز لتلقي العلوم المختلفة. ويقال أن أحد أفراد الأسرة الحاكمة، يدعى مي قاسم بيري (1242-1267) أنشأ مدرسة في مصر عرفت بمدرسة ابن رشيق، وخصص بها رواق لطلاب البرنو والحجاج العابرين بمصر⁽⁷⁸⁾.

كل هذا النشاط العلمي والثقافي الذي إزدهر منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي أثر عن ظهور علماء أجلاء وشيوخ طرق صوفية مختلفة. وأول هؤلاء العلماء الشيخ عثمان بن فودي القادري الذي تتلمذ على والده وعمه في تلاوة القرآن وتفسيره، مع دراسة اللغة العربية والتصوف ومختصر خليل والتوحيد. ويبدو إنه ألف حوالي أكثر من تسعين كتاباً في الفقه والتوحيد أشهرها كتابه؛ بيان وجوب الهجرة على العباد وبيان وجوب نصب الإمام. فرغ من تأليفه في عام 1806م. وحين بدأ عمليات الجهاد كانت كتبه تحمل على الإبل أثناء المعارك ومعها آلاف المخطوطات⁽⁷⁹⁾.

أما أخوه عبدالله بن فودي فله ستة عشر مؤلفاً منها كتاب تزيين الورقات. وللسلطان محمد بيلو عدة مؤلفات أيضاً منها كتابه؛ إنفاق الميسور...⁽⁸⁰⁾. ويقال أن لأحمد بابا التنبكتي أكثر من أربعين مؤلفاً. وكان التكاير يفخرون بإقتنائهم الكتب، ويبدو أن العلماء والطلاب كانوا يتبادلون الكتب فيما بينهم.

أما الحاج عمر بن تال الفوتي التيجاني فمن مواليد سنة 1794م، جاء إلى بلاد صكتو سنة 1826م بعد أداء فريضة الحج وكان قد قضى حوالي أربع سنوات مابين مكة والمدينة ودمشق والقاهرة، وإلتقى كثيراً من العلماء والأدباء، منهم شيخه محمد الغالي الذي إلتقاه بمكة وجعله خليفة الشيخ أحمد التيجاني. وفي طريق عودته مكث فترة في صكتو وتزوج ابنة السلطان محمد بيلو. عاد الحاج عمر إلى بلاده وأعلن الجهاد وإستخدم الأسلحة النارية ضد الكفرة⁽⁸¹⁾.

إلا إنه دخل في صراعات ومواجهات عسكرية مع حركات جهاد أخرى في ماسينا وتنبكتو وإستشهد في سنة 1864م. له أحد عشر مؤلفاً أشهرها كتاب الرماح وكتاب جواهر المعاني⁽⁸²⁾. وفي أغسطس من عام 1881م تفجرت ثورة الإمام المهدي في السودان وقامت دولة المهديّة بعد القضاء على الحكم التركي في السودان. وجدت هذه الثورة تأييداً من كل بلاد السودان، وأرست دعائم نظام إداري إسلامي حتى سنة 1898م⁽⁸³⁾.

إن هذه الحركات الثلاث تتفق في إنها سودانية أصيلة قامت كنتاج للمؤثرات الحضارية التي أهمها تشبع المجتمعات السودانية بالفكر الاسلامي الصوفي والتأثر بما يدور في العالم الإسلامي

من نشاط ديني ثقافي بفضل الإنفتاح السوداني على ذلك العالم مما أهلها للقيام بعمل إستراتيجي عظيم تمثل في قيام دول سودانية كبرى على نمط إداري إسلامي. فانتشرت الثقافة الإسلامية واللغة العربية بشكل أوسع. وكل ذلك كان بفضل الإنفتاح على العالم الإسلامي الخارجي الذي وضع لبناته الأولى الملوك والسلاطين السودانيون. ومن المهم أن نذكر هنا أن هذه الحركات الثلاث كان عمادها الطرق الصوفية التي كانت مسيطرة على الموقف بحكم السند الشعبي على المستوى الأفقي، والممارسة العملية التي يتميز بها المتصوفة. فتحوّلت الخلاوي في المدن والقرى للعبادة والتعليم والضيافة وانتشرت قباب الصوفية في كثير من المدن والقرى، مما يؤكد على ازدهار الصوفية وازدياد محبة الناس لها وإنخراطهم في سلكها، مما جعل شيوخها ياجهون حسداً عدم رضامن قبل بعض الفقهاء⁽⁸⁴⁾.

خاتمة:

لقد لعبت الطرق البرية التي تربط أفريقيا بالساحل السوداني والعالم الخارجي دوراً مهماً في التطور الإقتصادي-الإجتماعي والثقافي في أفريقيا في إطار حتمية التواصل وتبادل المنافع بين تلك البلاد الأفريقية والعالم الخارجي بخاصة بعد دخول الجمل أفريقيا كأخطر أداة في مجال النقل البري.

فلهذه البلاد من الثروات المعدنية والحيوانية والغابية والبشرية ما جعلها تشكل رقما مهما في حركة التجارة العالمية منذ القدم، ومثلت الطرق البرية العمود الفقري الذي بواسطته تتم تلك الاتصالات، وتأتي الموانئ السودانية لتكمل العملية التبادلية وتنقلها من الإطار الإقليمي إلى نطاق عالم الشرق والغرب. وظل البحر الأحمر يمثل الممر المائي الذي يربط الشمال بالجنوب والغرب بالشرق. فعلى الرغم من وجود بعض المعوقات الخاصة بالملاحة فيه إلا أنه ظل يمثل الخيار الأوحده في عمليات النقل البحري للتجارات الصادرة والواردة، وذلك بحكم موقعه الاستراتيجي وتوغله في اليابسة كذراع أيسر للمحيط الهندي. لذا كان من الطبيعي أن تزدهر تلك الموانئ السودانية بمرور السفن الأجنبية وإستخدام المراسي في عمليات الشحن والتفريغ. وما من شك في أن هذا النشاط الإقتصادي الدولي أدى إلى وجود أفارقة في كثير من بلاد العرب والمحيط الهندي وأوربا، كما أدى إلى وجود عربي في افريقيا. وبظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي وحدث ما يسمى بالسيادة العربية الإسلامية على البر والبحر، حدث تطور جديد في حركة التجارة والنقل إذ ازدحمت الطرق والموانئ بحركة النقل والسفر إلى الأراضي المقدسة في مواسم الحج والعمرة، مع إستمرار الهجرات لأسباب اقتصادية- إجتماعية وسياسية وثقافية داخل بلاد السودان وخارجها مما أدى إلى ورود الثقافة العربية الإسلامية من مراكز الإشعاع الحضاري في بلاد العراق والحجاز ومصر وشمال أفريقيا والمغرب الأقصى، عن طريق التجار والحجاج وغيرهم من الأفارقة الذين كانوا يهاجرون إلى البلاد العربية لتلقي العلوم الدينية محبة في الإسلام والثقافة الإسلامية. فانتشر التعليم بشكل طردي بواسطة الخلاوي والمساجد والروايات في مصر والحجاز، فصارت بلاد السودان تعج بالعلماء والمعلمين وطلاب العلم، مما أدى إلى قيام حركات دينية إصلاحية، كحركة جهاد الشيخ عثمان بن

فودي القادري، وحركة الحاج عمر بن تال الفوقي التيجاني، وثورة محمد أحمد المهدي في الفترة ما بين منتصف القرن الثامن عشر ونهاية القرن التاسع عشر، وما تحقق من نجاحات أهمها قيام دول إسلامية عظيمة في بلاد السودان.

النتائج:

(أ) إن البحر الأحمر يمتاز بعبقريّة المكان وقد جرت محاولات فرعونية لربطه بالبحر الأبيض المتوسط عن طريق النيل، وكذلك فعل المسلمون في صدر الإسلام، وحاول البرتغاليون ضرب الإقتصاد الإسلامي بتحويل السفن إلى طريق رأس الرجاء الصالح، إلا أن البحر الأحمر إستعاد أهميته بعد حفر قناة السويس في سنة 1869 م.

(ب) إن بلاد السودان كانت تصدر سلعاً إستراتيجية أهمها الذهب والرقيق والمنتجات الحيوانية والغابية ولا تستورد سوسلع إستهلاكية وأدوات مستهلكة كالمح والأقمشة والأدوات الزجاجية. (ج) إن شبكة الطرق البرية كانت سبباً مهماً في ورود الحضارة العربية والثقافة الإسلامية إلى بلاد السودان .

(د) إن أغلب الملوك والزعماء إستخدموا الطرق الصحراوية المؤدية إلى بلاد المغرب ومصر، مما دعم إقتصاديات تلك البلاد، في حين أن الفقراء ظلوا يستخدمون الطريق البري المباشر المؤدي إلى الموانئ السودانية.

التوصيات:

أن الموقع المتميز لبلاد السودان وإنتشار الإسلام في تلك البلاد جعلها - بالضرورة - وحدة متماسكة منذ زمن بعيد. ولتنمية وترسيخ تلك الوحدة ظهرت مؤخراً مبادرة سودانية لربط هذا الحزام السوداني بخط حديدي قاري. وكنت من المؤيدين للفكرة في مقال لي نشر في مجلة المؤرخ السوداني(العدد الثاني 2013-م صص 15-22). وبغض النظر عن إمكانية قبول الفكرة في ظل المتغيرات الحالية ، فهذا الإرث التاريخي العظيم يستوجب لم الشمل بالتفكير في إنشاء مؤسسة تعني بهذه الثقافة السودانية المتميزة ، وتنشيط جوانب البحث العلمي المشترك في مجال التاريخ وعلم الآثار وعلم الإجتماع والإقتصاد لإستكمال جوانب هذا الإرث العظيم.

الهوامش:

- (1) لتفصيل ذلك أنظر: ابوالقاسم، محمد المصطفى، مصطلح السودان في المصادر العربية والاجنبية. في: مجلة كلية الدراسات العليا، جامعة النيلين، العدد 16، 2016م.
- (2) الهمذاني، ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان. طبعة ليدن 1884. ص 251.
- (3) ابوالقاسم، محمد المصطفى، تجارة المسلمين مع أفريقيا، بلاد الزنج والسودان. رسالة دكتوراة، جامعة الخرطوم، مارس 2004.
- (4) الشرقاوي، علي رضوان، دور مصر السياسي والتجاري في البحر الاحمر في عصور البطالمة والرومان والبيزنطيين. رسالة دكتوراة، جامعة القاهرة بالخرطوم 1986. ص 204-208.
- (5) اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب بن واضح، كتاب البلدان (ملحق بكتاب ابن رسته، الاعلاق النفيسة، المجلد السابع، مطبعة بريل 1891، ص 34.
- (6) نفس المصدر.
- (7) ابن حوقل صورة الارض، الطبعة الثانية، بيروت ص 186.
- (8) مسعد، مصطفى محمد، الاسلام والنوبة في العصور الوسطى 1960. ص 46.
- (9) Hassan, Y.F., "The Fur Sultanate and The Long Distance Caravan Trade 1650-1850." In: Hassan Y.F., et al (Eds), The Central Bilad Al-Sudan Tradition and Adaptation (BSTA), Khartoum 1979, Vol.2, PP.205-214.
- (10) ابوالقاسم، محمد المصطفى، هجرات التكاير وإستيطانهم بالسودان الشرقي (تكاير القلابات) رسالة ماجستير، جامعة الخرطوم. 1990، ص 81.
- (11) النويري، شهاب الدين احمد عبدالوهاب، نهاية الارب في فنون الادب. دار الكتب المصرية القاهرة 1926/1345 ج 10 ص 109-110.
- (12) Salamam, P. "The Sahara in Classical Antiquity." in: General History of Africa (GHA), Vol.2. pp.523-527.
- (13) الجاحظ، عمرو بن بحر، كتاب الحيوان، ج 5 هامش ص 19.
- (14) الادريسي، المصدر السابق، ج 2 طبعة نابولي 1970، ص 136.
- (15) صالح، شهاب الدين حسن، رحلات جريئة لابن ماجد... في: الندوة العلمية لاهياء تراث ابن ماجد، ج 2 ص 166-167.
- (16) الشامي، صلاح الدين، الموانئ السودانية، ص 52.
- (17) مسعد، مصطفى محمد، المصدر السابق، ص 33-34.
- (18) الشامي، المصدر السابق، ص 54-56.
- (19) Hasan, Y.F., op.cit., p.31.
- (20) مسعد، المصدر السابق، ص 118.
- (21) Hasan, Y.F., op.cit., p.64.
- (22) Ibid, p.6366.
- (23) مسعد، المصدر السابق، ص 142.

- (24) ابن جبير ،رحلة ابن جبير ،ص42.
- (25) الشامي ،المصدر السابق، ص66، Hasan, Y.F.op.cit.,p.66.
- (26) ابوالقاسم محمد المصطفى، تجارة المسلمين، ص92.
- (27) Hasan, Y.F.,op.cit.,p79.
- (28) ابن جبير، المرجع السابق ، ص 30، Hasan, Y.F.,op.cit.,p73.
- (29) ابن جبير، المرجع السابق ، ص 5.
- (30) Hasan, Y.F.,op.cit.,p7987-80-.
- (31) مسعد، مصطفى محمد ، المصدر السابق، ص 75-93.
- (32) الشامي ، المصدر السابق، ص 99.
- (33) مسعد ، مصطفى محمد ، المصدر السابق، ص 144-145.
- (34) نفس المصدر ، ص 147-150.
- (35) نفس المصدر ، ص 151.
- (36) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، مكتبة التوفيقية ، القاهرة، ص 202.
- (37) Hasan, Y.F.,op.cit.,p86.
- (38) الشامي ، المصدر السابق، ص 94-96.
- (39) محمد المصطفى، تجارة المسلمين مع أفريقيا، ص 152.
- (40) Hasan, Y.F.,Some Aspects of the Arab slart Trade- in SNR Vol.58,p89.
- (41) دياب، أحمد ابراهيم، لمحات من التاريخ الأفريقي الحديث، الطبعة الأولى، 1401هـ، ص 92.
- (42) Fraier, theomas, R.(Editor) Afro- American History, primary Sources.U.S.A.1970,P.5
- (43) 66-2763-17,22-Ibid,pp.6.
- (44) دافيدسن ،بازل. افريقيا تحت أضواء جديدة، ترجمة جمال محمد أحمد، ص194.
- (45) Alnaqar,Umar,The Pilgrimage Tradition in West Africa,KhartoumUniversity Press,1972,p.43
- (46) Ibid.,p.46.
- (47) ابن خلدون ،العبر.....،بيروت 1971م ج.2، ص 237-238.
- (48) الأفة تساوي ثلاثة و ثلاثين اوقية،والثمن منها يساوي حوالي اربع أوقيات.
- (49) ابوالقاسم ،محمد المصطفى المصدر السابق، ص 227.
- (50) نفس المصدر .
- (51) Alnaqar,op.cit.,.1319-.
- (52) Ibid.,28.
- (53) باري،عثمان برايم، جذور الحضارة الاسلامية في الغرب الافريقي .القاهرة، الطبعة الاولى 2000/1421، ص46-47.
- (54) نفس المصدر ،ص 80 .
- (55) شقير ،نعوم، تاريخ السودان ،طبعة دار الجيل،بيروت، 1981، ص183.

- (56) حسن، يوسف فضل، تاريخ الممالك الإسلامية، ص45.
- (57) ود ضيف الله، المصدر السابق، ص132. هامش ذات الصفحة.
- (58) نفس المصدر، ص165، 47.
- (59) Alnaqar, op.cit., p.82.
- (60) أبو القاسم، محمد المصطفى، هجرات التكاير ص16.
- (61) نفس المصدر.
- (62) نفس المصدر، ص17.
- (63) 62. Arkell, A. J. "The History of Darfur, 1200-1700", in: SNR Vol.33 (1952), p.129.
- (64) شقير، نعم، المصدر السابق ص 161.
- (65) Intell., 455/7, Fellata Settlement in the Sudan.
- (66) Ibid,
- (67) باري، عثمان براهما، المصدر السابق، ص373.
- (68) شقير، نعم، المصدر السابق 909-910.
- (69) Intell. 6/2/8, Appendix 21, p54.
- (70) أبو القاسم محمد المصطفى، هجرات التكاير ص39-41.
- (71) نفس المصدر، ص 39 40.7-
- (72) نفس المصدر، ص 216-217. شقير، نعم، المصدر السابق، ص 220-216، 221.
- (73) نفس المصدر، ص 216-21، 220، 232 732.
- (74) ود ضيف الله، المصدر السابق، ص74-76.
- (75) نفس المصدر، ص193.
- (76) نفس المصدر، ص5.
- (77) نفس المصدر، ص 102.
- (78) نفس المصدر، ص354.
- (79) Crawford, D. G. S., The Fung Kingdom of Sennar. (Cloucester, 1951), p.217.
- (80) باري، عثمان براهما، المصدر السابق، 82.
- (81) Uthman Ibn fudi., Bayan Wujub Alhijra Ala, l Ibad. Edited and Translated by F.H. Elmasri, Khartoum University prss, 1976, p.178179-.
- (82) Ibid, p.197.
- (83) باري، عثمان براهما، المصدر السابق، ص98-99.
- (84) نفس المصدر، ص211-212.
- (85) شقير، نعم، المصدر السابق، ص325-327. وما بعدها.
- (86) باري، عثمان براهما، المصدر السابق، ص128-129.